مقدمة

كثير من الناس تاهوا عن معنى السعادة الحقيقية في الحياة ، وصارت كل أيامهم آلاماً وآهات ..هموماً وعذاباً .. فراغاً واكتئاباً .. خواءًوانزواءاً.. ولم تستطع أعظم الاستشارات الطبية والنفسية أن تحل في نفوسهم هذه المعضلة ، أو توجد في صدورهم معنى السعادة التي أعياهم البحث عنها كثيراً.

مارسوا كل الهوايات والملهيات، وتسلوا بجميع الألعاب والمباريات، أكلوا وشربوا وشاهدوا الأفلام والمسرحيات، ضحكوا وابتسموا وتغنوا بجميل الكلمات ، ولا زالوا مع هذا كله يهيمون في الضيق ، ويمزقهم القلق، وتعصرهم الهموم، فلا البال مرتاح ولا النفس سعيدة هانئة ...وإذا بهم يجدون شيئاً هناك قابعاً في نفوسهم يطرد منها أي إحساس بالراحة والغاية والحقيقة ، لا يعرفون ما هو، ولا كيف يصرفونه أو يقتلعونه من كيانهم؟!

وفي ظل هذه الحيرة المزعجة التي كدرت صفاء الحياة وأشقت حياة أولائك التائهين الشاردين.. يخرج علينا العلم الحديث ليكشف عما ذكره ديننا منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، فيوجه الضائعين الحزانى ويخبرهم بأن خير وسيلة تخلق السعادة داخلهم أن يصرفوا أوقاتهم في العمل التطوعي وخدمة الآخرين، ومساعدة المحتاجين، والمتأزمين ، وهي الوصية السحرية التي تجلب السعادة، ويزول معها أي إحساس بالفتور والضيق.

ولعل هذا يعد كشفا جديدا في مجال الإعجاز العلمي لديننا.. وإضافة تشهد بسموه وصدارة تعاليمه.. فالإسلام عظم من خدمة الآخرين ، وجعل من قضاء الحاجات عبادة يثيب الله تعالى عليها ويرضى عن صاحبها ، وبين نبيه ﷺ أن الإيمان مرهون بأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ؛ حتى يصير الجميع جسدا واحدا متحدا مترابطاً.

إن الإنسان لا يمكن له أن يكون على شيء من الإنسانية، وهو يرى الناس من حوله في عذاب وهموم يعانون ويتألمون ويشتكون، ثم يعرض عنهم ولا يبالي..لا يمكن له أن يكون هذا على شيء من الدين والضمير والرقي، حينما يتجرد من معالم الرحمة وبواعث الرفق والشفقة، وتصير مشاعره تجاه البشر كالحجارة أو أشد قسوة.!

ما أتعس حياة الإنسان اليوم ..لقد تأزمت محنته وصار يبحث فيها عن طريق للخلاص فلا يجد، أو وطن آمن يحيا فيه كريما فلا حيلة، أو أمة تقدر قيمة الإنسان وتعلي آدميته فلا أمل..!

قتل هنا وتدمير هناك ، وحياة كريهة تعج بالشرور والآثام، وأمم تدعي كذبا أنها راقية متحضرة، تحفظ كرامة الإنسان وحقوقه ، وهي في حقيقتها ذلك الوحش الغبي الذي لا تشبع نهمته من دماء الناس ولا تكل رغبته في الاحتلال والنهب والسلب.. لقد امتلأ العالم غدرا وشراً ، وتسلط أقوياؤه على ضعفائه، وحولوا ربوعه إلى غابة موحشة تضج بالظلم والآثام والطغيان.

وكم تشتد بي الآلام حينما أشاهد هؤلاء الذين يصرعهم الجوع والمرض.. في صحراء أفريقيا وربوعها النائية الفقيرة .. أتذكر أعينهم التي جف الدمع في مآقيها ، لكنها مع جفافها مازالت قادرة على بعث إشارات الحزن والأسى بقوة وغزارة..مازلت أتذكر صورة مؤلمة لا ينساها خيالي ..أراني إياها أحد المتطوعين في عمليات الإغاثة في مجاعات النيجر ، وكانت لطفل أنهكه الجوع وافترسه المرض ، ويستشرف لحظة الموت ويحتضر في ساعاته الأخيرة ، لأنه لم يجد شيئاً يدخل جوفه، قال لي المتطوع: حينما زرنا مخيم (منقازي) ، كان معنا بعض الحلوى نوزعها على الأطفال ونُسعدهم بها، ولاحظت طفلاً من بعيد مستلقياً على جنبه الأيمن تحت شجرة، موجهٌ للقبلة، مريض يحتضر، ينتظر الموت، فأخذت بعض الحلوى وذهبت إليه، وأردت وضعها في فمه، فأمسك بيدي وأخذ الحلوى، وأطبق عليها بيديه، ولست أدري ربما تكون آخر ما دخل جوفه، أو آخر ما تركه لأبويه بعد موته..!

وبقدر ما أجد من حرارة هذه المشاعر في نفسي، وبقدر ما تصيبني مرارتها بحزن كثيف، بقدر ما أطمئن على إنسانيتي وقلبي الذي ما زال متصلاً بآدميته ويحيا فيه الضمير والإيمان، لأرى فرقاً كبيراً بيني وبين أولائك العتاة الأوغاد الذين تبتهج نفوسهم بتعذيب البشر وإفناء الشعوب وإبادة الأمم ..

ولعل هذه السطور تعبر عما أجد داخلي من معاني الهم والأسى لمحنة الإنسان ، أو تكون رثاءً للمعذبين في كل مكان ، أو تكون دعوة صادقة لكل منا أن يعيش لغيره، فيرعى الضعفاء ويكرم الفقراء ويطعم الجائعين ويقضي حاجة الضائقين ؛ حتى ينهض مجتمعنا متراحما مترابطاً.

كما أنها أزاحت النقاب عن حقائق عظيمة من تاريخ هذه الأمة ، وإنسانيتها الفريدة التي لم تستطع أمة من الأمم أن تحاكيها فيما قدمته من إنصاف الإنسان وإكرامه وتقرير حقوقه ، مهما كان جنسه أو لونه..لأنها حضارة لم تستق إنسانيتها من طبع فيها أو خلق جبلت عليه، وإنما كانت هذه المعالم الراقية.. مبعث دين عظيم دانت به وطبقت تعاليمه.. دين .. خاطب الله تعالى نبيه ومبعوثه بقوله :

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)

حاتم إبراهيم محمد سلامة